الفوضوية المعاصرة في الأدب إلى أين ؟

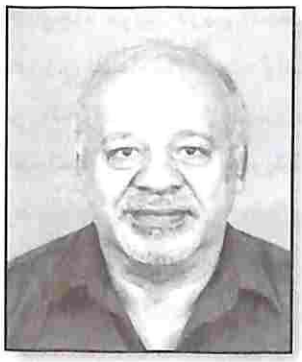

بقلم: ممدوح عيد القديري
كاتب فلسطيني

منذ أن قال «مورس بيكام» في كتابه «نزعة الإنسان نحو الفوضى والهيولى». الذي صدر في لندن ١٩٦٧: «إن الإنسان بفطرته يعرف النظام، ويستند إليه، وهو قائم في جسمه، وفي الكون من حوله. وإن الفنان لا يسعى إلى إبداع بناء منتظم، لأن من يقدم عملاً منتظمًا لا يستثير المتلقي، ولا يحثه على التفكير والانفعال، ولا يضيف له إضافة معرفية أو شعورية، وأن نتاجه يمثل نوعًا من المحاكاة لأنساق الوجود وأنماطه أما الفنان الناجح برأيه فهو الذي يكسر هذه الأنماط، لا لكي يعيد بناءها من جديد ، بل لكي يدفع القارئ إلى إدراك نزعة الفوضى التي هي وراء كل إبداع حقيقي».

و«مورس» يعد الأب والمصدر الأول للتفكيكية برأي د.محمد عناني في كتابه «الشعر المسرحي» الصادر عن هيئة الكتاب المصرية، ص٥٧ ، ٢٠٠١م.

والتفكيكية كما هو معروف تهدم كل شيء يتعلق بالتاريخ اللغوي والأدبي، وهي برأينا فوضى وهدم لكل ما ألفته الأجيال، وإلغاء أي معنى لأي عمل أدبي لأنه من العبث فهمه وفهم العالم الذي نعيش فيه حسب الفلسفة التفكيكية، والفوضى التي يستند عليها هؤلاء تنبع من كتابات علماء النفس التي تصرح بأن هذه الفوضى هي فطرية في الإنسان، تدفعه إلى الثورة على واقعه الطبيعي والنفسي، فهي محاولة لمقارعة الواقع، وتغييره ولو كان ذلك عن طريق التدمير والهدم وإشاعة الشرور. والإنسان كما يقولون: بطبعه يحب العودة إلى الهيولى «Choos». والفنان الذي لا ينزع الألفة بين القارئ والعالم الخارجي لا يغير شيئًا، وبالتالي ليس له تأثير.

ويميل من يطلق عليهم ما بعد الحداثيين إلى أن الواقع غير منسق، وأن المبدع لا يجب أن تكون لديه رؤية موحدة لها إحالة في الواقع، بل إن الإبداع يكون برؤية فوضوية (هيولى) من واقع وهمي بلا مرجع معياري إلى الواقع الحقيقي.

وهكذا يمضون أوهامهم برؤية شائهة ومريضة.

وبرأينا أن ذلك تخبط هروبي من الحقائق والواقع الصادق إلى العدمية الهدامة، بحيث تصبح الأمور بلا مرجعية، ليسود التوحش الفكري في كل مناحي الحياة. وقد أدى ذلك ببعضهم إلى إنتاج أدبي منزوع الهوية تقليدًا لبعض النزعات الغريبة في الغرب المولع بالجديد لمجرد أنه جديد، والموضة في كل شيء. وقد أدى ذلك أيضًا إلى انكماش في التنويع الأدبي، فقد نسبوا كل شيء إلى الشعر فهنا رواية شعرية، وهنا قصيدة نثر، واعتبروها ثورة على النظام الشعري القديم، وأثاروا بذلك مشكلة شكلية نسبوها إلى الشعر، وكان الأجدر بهم أن يكتشفوا معيارًا جديدًا لهذا النوع الخلاسي، ولا ننكر أن النظم في الشعر هو وسيلة سمعية لتحديد نوعيته. وهو وسيلة ظاهرة لنظام داخلي يتصل بتركيب الأفكار وبنائها بحيث تكون الصورة العامة للعمل مكتملة وتدل على النوع الأدبي الخاص بها.

وتأسيسًا على ما سبق فإن الدعوة الزائفة إلى ثورية الأدب ما هي إلا الامتداد الحديث والمتطور للسريالية وللفلسفة الرومانسية التي شاعت منذ قرنين تقريبًا. والغرب يعيد ذلك القديم بصورة جديدة وبمسميات براقة تجذب الآخر المولع بكل جديد (موضة)، فيتشيع لها بعضهم ويتحمس، ويتخذها شعارًا له دون أن يدرك أن نغمته قديمة، ولكنها بترديد آخر على نفس الوتر القديم، وكل ذلك هو تجسيد لفلسفة ماركيوز في مجال الأدب والفن.

ويقول د.عبدالرحمن ياغي في صحيفة الرأي الأردنية بتاريخ ٢٠٠٣/٧/١٣م ص١٠: «هناك تقليد أعمى لبعض الاتجاهات المنعزلة في الثقافة الفرنسية المعاصرة، وخاصة المدرسة المسماة «تيل كيل» وهي اليسار الجديد في الثقافة البورجوازية الصغيرة المغامرة، والمنعزلة عن حقائق الواقع الموضوعي، ومناهج الثورة الحقيقية».

وأقول بعد د.ياغي: ألا يشعر أمثال هؤلاء في الساحة الأدبية العربية بالخجل. ألا من وقفة مع النفس لمراجعتها والرجوع عن الغي. والعمل على التمسك بالقيم القابلة للتطور في مجال الأدب دون اغتراب أو انعزال. والتمسك بالحوار البناء مع الواقع المعيش من أجل البناء والتطوير إلى الأفضل. بدلاً من مشايعة الآخر في فوضوية العدمية التي تؤدي إلى الدمار المادي والمعنوي للذات الإنسانية.